N! ALL مع جوردان إيزلي

ما هي السماء حقًّا

السماء > الجحيم | الجزء الثاني | يوحنا ١٤:١-٣

مقدمة

حين كنت في الثانية والعشرين، صرتُ راعيًا للشباب في كنيسةٍ صغيرة، وكان كل ما فعلتُه هناك تقريبًا لأول مرة: أول مخيّم شباب، وأول رحلة إرساليّة، وأول سلسلة وعظيّة. لكنّ أول أمرٍ لن أنساه أبدًا كان أول جنازةٍ خدمتُها. كانت لفتًى مراهقٍ اسمه بريت، شخصٌ نلتُ شرف إرشاده إلى الربّ قبل أسابيع قليلة فقط من وفاته المفاجئة. لم يتربَّ بريت في بيتٍ مسيحيّ، وتحطّمت عائلته حزنًا. أثناء الخدمة شاركتُ قصّة خلاص بريت والرجاء الذي كان لنا بأنه، بسبب يسوع، صار الآن مع الربّ. وفي وسط تلك الرسالة، غضب أخو بريت الأكبر غضبًا شديدًا حتى وقف وهدّد بأن يشتبك معي. بعد الخدمة وجدتُه وحده في زاوية، فتحدّثنا، وهذا ما اكتشفتُه: لم يكن غاضبًا لأن أخاه وثق بيسوع. كان غاضبًا لأنه هو لم يملك الرجاء نفسه، وفكرة ألّا يرى بريت مرّةً أخرى حطّمت قلبه. في ذلك اليوم تعلّمتُ شيئًا: حين تكون السماء غير واضحة، يصير الحزن لا يُحتمَل، لكن حين تكون السماء أكيدة، فالحزن ليس نهاية القصّة.

الأسبوع الماضي أزلنا ما لا يقوله الكتاب عن السماء. فاليوم نطرح السؤال الطبيعيّ التالي: إن لم تكن السماء كذلك، فماذا يقول الكتاب أنها هي بالضبط؟ وهذا سبب كون هذه الدراسة ثمينة: لم يتركنا الله نُخمّن. لم يترك السماء غامضةً، ولا مُبهمة، ولا لخيالنا. أعلنها، ووصفها، وأزاح الستار بما يكفي لنرى ما نحتاج أن نراه. وهذا مهمّ، لأنك حين ترى السماء كما يُعلنها الكتاب، لا يتغيّر فقط ما تؤمن به عن المستقبل، بل تتغيّر طريقة عيشك الآن، وكيف تتألّم، وكيف تحزن، وكيف تحتمل، وكيف تواجه الموت. فلنكفّ عن الكلام عمّا ليست هي السماء ولنبدأ بالكلام عمّا هي السماء حقًّا.

النقاط الرئيسية

١. السماء مكان

في أحلك ليلةٍ من حياته الأرضيّة، قبل الصليب بساعاتٍ قليلة، قال يسوع بعضًا من أكثر كلماته تعزيةً: «لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ فَآمِنُوا بِي. فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ... أَنَا أَمْضِي لأُعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا» (يوحنا ١٤:١-٣). كلمة «مكان» مهمّة. يستخدم يسوع الكلمة اليونانية توپوس، موضعًا حقيقيًّا، ومسكنًا، مكانًا يمكنك فعلًا أن تكون فيه مع أحد. لا تُعِدّ استعارةً ولا تبني فكرة؛ بل تُعِدّ مكانًا. إن قال لك أحد «حجزتُ لك مقعدًا»، فهناك كرسيّ حقيقيّ في مكانٍ ما، وتوقّعٌ بأنك آتٍ.

فأين هي؟ يتكلّم الكتاب عن ثلاث سماوات: السماء الجوّيّة (الفضاء الذي تطير فيه الطيور وتتحرّك السُّحُب)، والسماء الفلكيّة (الفضاء الخارجيّ، الشمس والقمر والنجوم، «السماوات تُحدّث بمجد الله»)، وسماءٌ ثالثة، يسمّيها بولس في ٢ كورنثوس ١٢ الفردوس. تلك السماء الثالثة هي مسكن الله الآن، حيث عرشه، وحيث المسيح، وإليها يذهب المؤمنون حين يموتون، ولهذا قال يسوع للّصّ على الصليب: «الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ». فالسماء الآن حقيقيّة، وحاضرة، ومأهولة. لكنها لن تبقى بعيدةً إلى الأبد: يقول رؤيا ٢١ إن أورشليم الجديدة تنزل من السماء من عند الله. لاحظ الاتّجاه. الله لا يساعدنا على الهروب من الخليقة؛ بل يُرمّمها، مُجدِّدًا الأرض حتى تنزل السماء، مسكنه، وتتّحد بأرضٍ مُجدَّدة. مستقبل الأبديّة ليس نفوسًا تطوف صاعدة إلى الأبد؛ بل الله يدخل ليسكن. السماء ليست حالةً مزاجيّة، ولا طاقة، ولا حالةً ذهنيّة. إنها مكانٌ حقيقيّ، أعدّه مخلّصٌ حقيقيّ، لأناسٍ حقيقيّين مثلنا، ويسوع يقول: «أُعِدّه، وآتي لآخذك».

٢. السماء وطن

«هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ» (رؤيا ٢١:٣). من بداية الكتاب إلى نهايته، القصّة نفسها: الله يتحرّك نحو شعبه. عدنٌ كانت الوطن، والخطيّة كسرته، والسماء هي عدنٌ مُرمَّمة، الله يُعيدنا إلى ما خُلقنا لأجله في البدء. وهذا ما نعرفه عن الوطن: لا يُحدَّد بجدرانٍ أو أثاث. الوطن هو حيث تكون معروفًا تمامًا، ومحبوبًا تمامًا، وآمنًا تمامًا، بلا تظاهر، وبلا أداء، وبلا خوفٍ من أن تُطرَد. «لاَ يَسْتَحِي بِهِمِ اللهُ أَنْ يُدْعَى إِلهَهُمْ، لأَنَّهُ أَعَدَّ لَهُمْ مَدِينَةً» (عبرانيين ١١:١٦). ما أعدّه هو مدينة، مكان انتماءٍ وشركةٍ ودوام، ما يقول لنا إن السماء ليست مكانًا يحتملنا الله فيه فقط؛ بل مكانٌ يُرحّب بنا فيه.

يمكنك السفر إلى أماكن مذهلة، لكن بعد حينٍ يقول شيءٌ في داخلك: «أنا مستعدٌّ للعودة إلى الوطن». إن كنت تعرف الربّ، فأنت ذاهبٌ إلى الوطن يومًا ما. لن تبدو السماء كإجازةٍ تنتهي؛ بل ستبدو كوصول، المكان الذي فيه يجد الشوق الذي حملته دائمًا، الحنين إلى ما هو أكثر وما هو دائم، معناه أخيرًا. «لأَنْ لَيْسَ لَنَا هُنَا مَدِينَةٌ بَاقِيَةٌ، لكِنَّنَا نَطْلُبُ الْعَتِيدَةَ» (عبرانيين ١٣:١٤). هذا العالم ليس وطنك، ولهذا لا يُشبعك تمامًا قطّ، ولهذا تبدو حتى أفضل اللحظات مؤقّتة، ولهذا شيءٌ فيك يشتاق دائمًا إلى المزيد. لم تُخلَق لهذا العالم فقط؛ خُلقتَ للوطن، والسماء هي ذلك الوطن.

٣. السماء جميلة

كثيرون يتصوّرون السماء مقدّسةً لكن، بصراحة، مُملّةً قليلًا: نظيفة، وهادئة، وبلا لون، وكأن القداسة تستنزف الحياة من الأشياء. لكنّ تلك الصورة لم تأتِ من الكتاب. «وَكَانَ بِنَاءُ سُورِهَا مِنْ يَشْبٍ، وَالْمَدِينَةُ ذَهَبٌ نَقِيٌّ شِبْهُ زُجَاجٍ نَقِيٍّ. وَأَسَاسَاتُ سُورِ الْمَدِينَةِ مُزَيَّنَةٌ بِكُلِّ حَجَرٍ كَرِيمٍ» (رؤيا ٢١:١٨-١٩). لا يُعطينا يوحنا هذه التفاصيل لنرسم السماء؛ بل يقول لنا إن السماء ليست بسيطةً إلى حدّ الفراغ، ولا جرداء، ولا بلا حياة. في كل الكتاب، حين يُعلن الله ذاته، يكون الجمال حاضرًا. حين أوصى موسى ببناء المسكن، لم يقل «اصنع أيّ شيءٍ فحسب»؛ بل أعطى تعليماتٍ مفصّلة عن اللون، والقماش، والذهب، والصنعة، لأن الجمال يعكس طبيعة الله. القداسة لا تُزيل الجمال؛ بل القداسة تُنتج الجمال.

ولن تكون السماء جميلةً في تصميمها فحسب؛ بل ستكون جميلةً بسبب الناس الذين سيكونون فيها. يُظهر رؤيا ٧:٩ جمعًا كثيرًا «مِنْ كُلِّ الأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ وَالأَلْسِنَةِ» واقفين أمام العرش، ما يعني أن السماء ستكون متنوّعةً، ونابضة، ومملوءةً حياة، مُدوّيةً بالتسبيح وغنيّةً بالعبادة، إذ يُفتدى كل ثقافةٍ وتُرفَع كل لغة. «أَمَامَكَ شِبَعُ سُرُورٍ. فِي يَمِينِكَ نِعَمٌ إِلَى الأَبَدِ» (مزمور ١٦:١١). لا يُبالغ المرتّم، بل يُقارن: كل ما نتمتّع به في هذه الحياة له حدود، يتلاشى ويزول، لكنّ الحياة في حضور الله لن تنقص ولا تخفّ. الفرح هنا يأتي في موجات؛ والفرح هناك يدوم إلى الأبد. والسبب أننا في السماء سنكون مع الله، والفرح يتدفّق من كونه هو. حتى الآن، كلّما اقتربت من الله امتلأت الحياة أكثر، فتخيّل أن تكون بنسبة ١٠٠٪ في حضوره، ١٠٠٪ من الوقت، بلا خطيّةٍ أو تشتّتٍ أو حدّ. حينئذٍ نختبر شِبَع السرور ونِعَمًا إلى الأبد. لا يمكن أن تكون السماء مُملّة، لأن إلهنا هو جوهر الجمال ذاته.

٤. السماء جديدة

من أقوى الوعود في الكتاب ليس أن الله يُصلح كل شيء، بل أنه يصنع كل شيءٍ جديدًا. «ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً... وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ... هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ جَدِيدًا» (رؤيا ٢١:١-٥). كلمة «جديد» مهمّة. نميل إلى سماعها كاستبدال، وكأن الله يرمي كل شيءٍ ويبدأ من جديد، لكنّ الكلمة اليونانية التي يستخدمها يوحنا، كاينوس، لا تعني جديدًا في الزمن؛ بل تعني جديدًا في النوع، مُجدَّدًا، مُرمَّمًا، مُعادًا إلى ما قُصد أن يكونه دائمًا. هذا العالم ليس للرمي، بل للفداء. لن يتخلّى الله عن خليقته؛ بل سيفديها، ويُرمّمها، ويجعلها جديدة، وهذا بالضبط ما يشير إليه بولس حين يقول إن «الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضًا سَتُعْتَقُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْفَسَادِ» (رومية ٨:٢١). الفساد ليس حالة العالم النهائيّة؛ بل حالةٌ مؤقّتة.

وقد رأينا هذا النمط في يسوع. حين شفى الناس، لم يُعالج الأعراض فحسب، بل ردّ الوظيفة: العيون العمياء لم تتحسّن فقط، بل أبصرت؛ والأرجل المُقعَدة لم يخفّ ألمها فقط، بل مشت. لم تكن تلك المعجزات أعمال شفقةٍ عشوائيّة، بل كانت لمحاتٍ، طلائع للترميم الذي يقصده الله في النهاية لكل شيء، والسماء ستأتي بالشفاء نفسه على نطاقٍ كونيّ. يأتي يومٌ تُعالَج فيه كل مظلمة، ويُفتدى فيه كل جرح، ويُجاب فيه كل فقدان، حين لا تكون هناك جنازاتٌ بعد، ولا أجنحة سرطان، ولا غرف انتظارٍ ملأى بالرهبة، ولا وداعاتٌ أخيرة. السماء ليست الله يُرقّع عالمًا متضرّرًا؛ بل الله يُعلن مرّةً وإلى الأبد أن الكسر لن يكون له الكلمة الأخيرة. فالألم الذي عرفته ليس عبثًا، والكسر الذي احتملته ليس دائمًا. الله لم ينتهِ، وما يُعِدّه ليس أفضل فحسب، بل جديد.

٥. السماء أكيدة

كثيرون يتكلّمون عن الأبديّة بلغة الرجاء بدل اليقين: «أرجو أن أكون هناك»، «أظنّ أن الأمر سيسير على ما يُرام»، «سننتظر ونرى». لكنّ الكتاب لا يتكلّم عن السماء هكذا قطّ. ليست مقامرةً ولا رميةَ نردٍ روحيّة. يعالج بولس هذا مباشرةً: «لأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ نُقِضَ بَيْتُ خَيْمَتِنَا الأَرْضِيُّ، فَلَنَا فِي السَّمَاوَاتِ بِنَاءٌ مِنَ اللهِ، بَيْتٌ غَيْرُ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، أَبَدِيٌّ» (٢ كورنثوس ٥:١). لا يقول «نرجو» ولا «نظنّ»، بل يقول «نعلم»، وذلك اليقين لا يأتي من التفاؤل، بل من وعد. ويلتقط بطرس الفكرة نفسها، واصفًا مستقبلنا بأنه «مِيرَاثٌ لاَ يَفْنَى وَلاَ يَتَدَنَّسُ وَلاَ يَضْمَحِلُّ، مَحْفُوظٌ فِي السَّمَاوَاتِ لأَجْلِكُمْ» (١ بطرس

١:٤). كلمة «محفوظ» تعني مَصونًا، ومحميًّا، ومُدَّخرًا، ما يعني أن السماء ليست هشّةً ولا تعتمد على مدى أدائك في يومٍ ما.

فإن سألتُك: «هل ستذهب إلى السماء حين تموت؟»، فيقينك لا ينبغي أن يرتكز على ثباتك؛ بل على أمانة الله. أنت لا تذهب بسبب ما فعلتَه ولا بمدى حسن عيشك؛ بل تذهب بسبب ما فعله يسوع نيابةً عنك. حين خلّص نفسك لم تُغفَر فحسب، بل صرتَ ابنًا للملك، وللابن ميراث، ميراثٌ لا تكتسبه ولا تحافظ عليه، بل قد تأمّن ويُحفَظ لك في السماء. مستقبلك لا يتعلّق بخيط؛ بل مُمسَكٌ بيدَي أبٍ أمينٍ يَعِد ألّا يتركك أبدًا. «وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي» (يوحنا ١٠:٢٨). السماء ليست أكيدةً لأنك قويّ؛ بل أكيدةٌ لأن الله أمين. وحين تصير السماء بهذا القدر من الواقعيّة لك، تُغيّر كيف تعيش اليوم: تُرخي قبضتك عن الأمور المؤقّتة، وتستثمر في ما يهمّ حقًّا، وتهتمّ أكثر بالناس من حولك، لأنك ستعيش إلى الأبد في مكانٍ ما، والسماء مكانٌ مُعَدٌّ لأناسٍ مُعَدّين، أعدّه الوحيد القادر أن يُعِدّك.

أسئلة للتأمل

1. قال يسوع إنه يُعِدّ لك «مكانًا» حقيقيًّا. كيف يُغيّر علمك بأن السماء مكانٌ حقيقيّ، أعدّه يسوع شخصيًّا، طريقة تفكيرك في الموت والمستقبل؟
2. تُوصَف السماء بأنها «وطن»، المكان الذي فيه تكون معروفًا ومحبوبًا وآمنًا تمامًا. أين كنت تحاول أن تجعل هذا العالم وطنك الدائم، وكيف قد يكون «الشوق إلى المزيد» يُشير بك نحو الوطن الذي خُلقتَ لأجله؟
3. يقول بولس «نعلم»، لا «نرجو». لو سألك أحدٌ هل ستذهب إلى السماء حين تموت، أيرتكز جوابك على ثباتك أم على أمانة الله؟ كيف سيبدو أن تُرسّخ يقينك في ما فعله المسيح؟